

أعقاب السكاير

قصة بقلم مرسين كايد

جاء الدنيا من غير اذن الناس ، وعاش في دوار ، وحيداً مع امه .. مع قلقة ، يكر على ماضيه بعناد يحاول ان يتذكر وجه أبيه فيما ككل «النفائات» التي خرجت الى الدنيا سراً ، فتذكر لها اصحابها والناس وانكرت نفسها تعيش في الظلام .

كان ميخائيل يعض شفثيه حتى الدم ، حين يعترضه في الشارع انسان لا ككل الناس يسأله بنجش عن اسم ابيه ، ويسرع في شيه متشجج الاصابع يهرب من ضحكة شامته تظن في اذنيه طيناً مزعجاً ، كأن اسم ابيه ، فيما لو كان له أب ، يخلصه من حياة الدل والبؤس التي يتمرغ فيها كثيرون غيره يعرفون « اسماء » اباهم . شغل بالسؤال ، على مر الايام . نسي نفسه وامه وراح يفكر بأبيه تفكيراً متصلاً في الليالي الطويلة ، تله عتمة كشيعة في غرفته الضيقة الضائقة في حي قدر من احياء العاصمة . كانت امه تنام وسرها في اعرق زاوية من الغرفة ، تسمل بين الفينة والفينة سماعاً حاداً يقطع النفس ، ثم تتوجه اليه تكلمه بصوت تخفقه البحة : « ميخائيل يا ابني ، آن لك ان تنام » ، وتتنهد ، فيرفع اللحاف عن وجهه ليسألها بدوره ، دون ان ينتظر جواباً : « الم تغفي بعد ؟ » ويفرق في سويدائه ليفيق منها ، بعد حين ، على بكاء متقطع يصدر من الزاوية — من « قفة » الحزن والهم .

اعوام تمر ، وميخائيل يعيش في حقدته وقلقه . يذهب ، صباحاً ، الى عمله في مصنع النسيج ، في الطرف الشمالي من المدينة ويعود ، عصرآ ، الى البيت مكفهر الوجه ضيق الصدر ، يفش عن مخرج لعذابه . ومثله ابداً وجد نفسه في أصيل يوم من خريف ١٩٣٩ ، في طريق العودة الى البيت ، بمشي مهدوداً حذراً ، ينظر بضيق الى حركة الناس ، تدفمه حاجة غامضة الى سلوك طريق ضيقة خلف غرفته تقع فيها حجارة يؤمها رجال الحي مساء .

لم يكن قد تخطى باب تلك الحجرة يوماً ؛ لكنه في ذلك الاصيل وقف امام واجبتها كالابله ؛ ينظر الى داخلها بعينين كبيرتين لا يفقه سر قوة مجولة تسمره في مكانه كشيء عادم القيمة لا ارادة له . حاول ان يعتمد ، لكن رجليه تحركتا من الوجهة المعاكسة ، ووجد نفسه في داخل الحجرة ، امام الدكة ، يطلب بصوت غريب عنه : كأس عرق .

خرجت الكلمات من فيه ثقيلتين كالرصص : خيل له معها ان زبائن الحانة جمعوا صدى وقعها على صفيح الدكة . ادار عينيه في جميع الزوايا يستطلع الوجوه حقيقة الامر فظالته عيون حمراء كالدّم تنظر اليه نظرها الى حيوان غريب .

اضطرب على كرسبه ، ولم يلحظ في اضطرابه وجود حنا بائع الخضار في الزاوية

خلفه . رآه ، فجأة ، منتصباً على قدمين مترنحين يدني من وجهه وجهاً شوه السكر تقاطيعه ، يلح عليه بصوت كريبه أن يقوده الى امه : مريانة .

دارت به الارض . احس بالنبار تسلس اذنيه . احس شيئاً ثقيلاً كالبحر يعصر قلبه . وبحقد ارتفعت يده في الهواء لحظة ثم هوت عنيفة كالطرقة على وجه حنا فانهار دنة واحدة ، مرسلأ أنه اقشعر لها بدنه راح ينظر اليه بعينين ضائعتين ، لا يستطيع أن يفكر ، كأنه افرغ من كل حس . تسمرت قدماه في الارض وسال العرق في ظهره بارداً . كان الصمت عميقاً يترك في خلايا المنع نتيلاً يبلد العصب ، هيمن لحظة استولت فيها الدهشة على جميع من في الحجرة .

حار ميخائيل في امره . بجهد خطا خطوة واحدة يطلب الشارع ، لكن هممة عميقة ترددت مبهمة غامضة ثم تجت قوية واضحة تتحلبا شتائم قدرة ، واحاطت به اجساد مترنجة تمسك بقميصه . وكلمح البصر هوت القبضات على وجهه ، على عنقه ، على صدره ، تضربه دون شفقة ، فضت عيناه من ضربة اصابت جبهته ، وارتسنت على وجهه تكشيرة ألم . شعر بلذع الكلمات عنقياً يساق جسده سلقاً ، وانسدلت غشاوة على بصره كاد يبتنق بسائل مالح ملأ فمه وخياشيمه ، لكن برودة كالتلج تمشت في اطرافه وخديه ، عقبها خدر عميق خف معه ألمه ، غاب بعده عن وعيه .



عاش ميخائيل ، بعد هذا التاريخ ، اشهرأ ظل يذكر في غضوننا. كيف غادر البيت في الفجر العميق لا يلوي على شيء ، تملأ نفسه رغبة في الهرب بعيداً الى اطراف الدنيا . خرج يجر رجله جراً ، يمشي في الشارع الهادئ حزناً تلبأ تلبأ جسمه بقع زرقاء كبيرة ورفع يديه يضغط صدغيه ضغطاً عنيفاً على يعض حدأ لدوي مزعج ملأ رأسه . كانت عيناه تنظران بغير اكترأ الى عمال التنظيفات في اثوابهم المرقعة يغسلون ارض الشارع ودماغه يفكر تفكيراً عميقاً بأمر طالما شغله في الفترة الاخيرة من حياته . فقد ، غلى مر الدقائق كل شعور بالألم وتركز تفكيره على نقطة بالذات ، ارتسمت امام عينه على شكل اشارة استفهام كبيرة تحيط بحياته ، كل حياته تسبها بطابع الذل والحقارة .

رويدا ، رويدا ، تقلصت الاشياء تقلصاً عجيباً وغابت خلف غشاوة سميكة ووجد نفسه في محطة سكة الحديد ، بعيدا عن البيت .. عن أمه .

في صالة الانتظار ، امام شباك التذاكر ، سمع رجلا يطلب تذكرة الى حلب ففعل مثله . دفع ما معه : ليرات قليلة جمها قرشا قرشا ، ومشى تدفمه جاهير المسافرين الى عربة الدرجة الثالثة يأخذ مكانه بين عجوز تملأ البثور وجها ، وبدوية تفوح رائحة نتن من ثيابها القذرة .

كيف عاش ميخائيل ايامه الاولى في حلب ؟ ماذا فعل ؟ اين نام ؟

يعرف انه لم يعيش وحده .. لم يفعل شيئاً بنفسه . نزل من العربة يرتجف من الجوع والبرد ووقف منفردا ينظر الى المسافرين يغادرون المحطة بسرعة . كان في حيرة من أمره يفكر بجل عندما اقترب منه رجل كحل رث الثياب تشع عيناه ببريق غريب وسأله عود كبريت .

قدم له علته وراح ينظر اليه يشمل عقب سيكارة ، فابتسم الغريب وقال له ببساطة : « اني ادخن اعقاب السكاير » واذاف : « اسمي هرشو » ومد يده بعقب سيكارة أخذه ميخائيل وأشعله وراح يسحب الدخان بشره .

كان اول عقب سيكارة دخنه في حياته ، ربطته توا بصاحبه صداقة ما عرف انها ستقطع يوما بشكل غريب . عرف « هرشو » قصته في دقائق ، قاده بعدها الى مطعم حقير في زقاق ضيق يقدم له صحن من الفول ، اتبعه بعقب سيكارة . كان يتصرف معه تصرف انسان واثق من نفسه لا يعرف همأ من هموم الدنيا : وما لبث ان مشى به ، في الازقة الضيقة ، حتى بلغا بيتا مهتما تقوم في زاوية منه ظلة من تنك ، كوم تحتها شبه فراش .

★

عاش ميخائيل مع « هرشو » يدوران في الازقة كالكلاب الجائعة ، يجعلان اعقاب السكاير ويأويان ليلا الى الظلة يتحدثان او يقرأ ميخائيل في كتب عتيقة ، كان « هرشو » يجعلها له لا يدري من أين ، فيفتح عينه ويصني ملء جوارحه ، ثم يهز رأسه وبتسم ساخرأ يقول :

— لا تصدق شيئاً . ليس في الدنيا انسان يعرف الحياة . وانت اين تملت ؟

ثم ينظر الى الارض وعلى جبينه تجاعيد يغيب في عالم بعيد .

في آخر ليلة قضاه ميخائيل مع « هرشو » قص عليه هذا الاخير مرحلة من مراحل حياته — اسودها كما قال — ضفط يديه وحقق الى وجهه . فاغر العنين :

— البؤس ، يا بني ، خطر على الانسان . انت ، في المرة الاولى

ضربت . ضربت حنا . في المستقبل قد تقتل مثلي انا ، دون ان تكون لك رغبة في القتل ، أندري لماذا قتلت ؟ كنت شقيا جائعا لا اجد رغبة . ثقل علي شقائي ورأيتني ارفع المجرمة اهوي بها على رأس زوجتي ، في دقيقة جنون بلل فيها المطر النافذ من شقوق السقف ، فراشنا الوحيد ... كأنها هي المسؤولة ...

قام « هرشو » يعتمد عن ميخائيل . ابتعد اكثر من اللزوم ، ورحل تلك الليلة ولم يعد ، فانتظره ميخائيل ، اياما ، ثم قصد مصنعا من مصانع النسيج يعمل فيه .

كان يقضي نهاره بين جدران المصنع يفتك برثيه غبار القطن ، ويدور ليلا على الخمارات يشرب المرق وحيدا ، او بصحبة كوستا رئيس فرع الميكانيك في المصنع حين يكون هذا الاخير على خلاف مع صديقة له تعمل في حانة من حانات سوق الجميلية .

عاش شهورا عيشة انسان شبع من حياته . عاش عيشة انسان ينتحر . وفي مساء محطرات شاعت فيه السويداء في نفسه توجه الى الحانة التي تعمل فيها صديقة كوستا . وجد صديقه جالسا معها قرب دائرة الرقص ، فجلس الى طاولتها وطلب ، على غير عادته كوبا من البيرة .

شرب كوستا تلك الليلة بشره . شرب حتى الضياع وراح يحدث ميخائيل عن اليونان .. عن حياته الماضية . قص عليه خبر فتاة قروية رآها على الصخور تنظر الى البحر فحملها عنوة ومدهدا على الرمل ..

لم يتركه ميخائيل يكمل حديثا يطعنه في صدره يذكره بهاضي أمه .. بعدا به . انقض على كالجئون وراحت يده تمزق وجهه المجذور بقسوة . كان يضربه باعصابه وقلبه ، على اسنانه ، على أنفه ، على صدره . زاغ بصره . واستحال كوستا بين يديه رجلا آخر — كائنا يشبه ، قهراً ، رجلا لوث امه وتركه هو نفاية في الدنيا — عقبا من اعقاب السكاير لا اسم له . وبمجد أطلق اصابعه على عنقه يشد ويشد فاسرع الخدم وانقذوه من بين يديه في لحظة رأى فيها الموت بعينه .

أفاق ميخائيل يلهث . ادرك في لحظة انه كاد يقتل مثل هرشو : كاد يصير مجرما ، فتصبب العرق من جبينه العريض ونظر حوله بذهول . كانت صديقة كوستا ساهمة تنظر الى الواجبة والمطر يتساقط على زجاجها دون ان تمد يدا الى كروبها ، فلما هدأت السماء قامت الى الباب تمشي على مهل . ومن على العتبة نظرت الى ميخائيل تدعوه الى اللحاق بها فمشى با كتاب ورافقا الى غرفة الصغيرة . لم يسألها شيئاً ولم تخرج بدورها عن الصمت . كانت تنظر اليه بحنان عميق ، فلما تمدد على سريرها تكومت بين يديه وضفط صدره تغيب فيه ... وكطفل صغير ارتعش ميخائيل وكرت من عينيه دمة فرح . دمة كانت الاولى في حياته .

عرفت هذا الشق من حياة ميخائيل ، ايام الحرب الاخيرة ، عهدا قاسيا في حب ، قصتها علي امرأة سمراء تهرق عيناها كالماص ، كانت تعمل في حانة من حانات سوق الجميلية ، فلما سألتها عن مصير ميخائيل رسمت بيدها حركة في الهواء واجابت مثل من يفوق من كابوس مزعج :

— ميخائيل ! مات .. دهسته سيارة في هذا الشارع بالذات بيتا كان يشمل سيكارة .

ثم اضافت بغصة : قتله السيكارة .

موريس كامل